

أبو البركات البربري.. قصة الإسلام في المالديف

أبو البركات البربري، رحالة مغربي يقال إنه كان سببا في دخول سكان المالديف في الإسلام الذي وصل إلى تلك الجزر عام 548 هجريا، 1153م، وكان لذلك قصة أسطورية غريبة رواها الرحالة الشهير ابن بطوطة في رحلته الكبرى في القرن الرابع عشر الميلادي. فماذا تعرف عن قصة انتشار الإسلام في جزر المالديف التي لا يُعرف عنها شيء سوى طبيعتها الساحرة؟ ومن هو أبو البركات هذا الذي يعرفه ويقدره ويكرمه كل سكان المالديف ، في حين لا نعرف نحن عنه شيئا؟

لا شك أن الصور الذهبية التي يخزنها الكثيرون في مخيلتهم عن **جزر المالديف** هي تلك الشواطئ الذهبية والغابات الكثيفة بطبيعتها الجميلة ومناظرها التي تسحر القلوب والأبصار. لكن الذي يغيب عن أذهاننا هو معرفة تاريخ هذه الدولة بجزرها التي تفوق الألف جزيرة، وسكانها الذين لا يتجاوزون نصف مليون نسمة!! لكن جميعهم مسلمون بالضرورة. فلكي تكون مالديفيا يجب أن تكون مسلما.

فما قصة الإسلام في هذا البلد البعيد الذي تنتشر جزره في المحيط الهندي، ومن يقف وراء نشر **الدعوة الإسلامية** في مثل هذه المناطق؟

قصة أم أسطورة؟

يقال أن أبو البركات البربري (الأمازيغي) بخار مغربي مسلم وحافظ للقرآن الكريم، كان يبحر بسفينة تحطمت به قبالة شواطئ إحدى جزر المالديف، وقذفته الأمواج إلى الشاطئ، فعالجه واعتنى به أحد الصيادين الذي جعله يمكث معه حيناً من الزمن، حتى تعلّم لغة السكان الأصليين .

وذات يوم، رأى أبو البركات الصياد وزوجته يبكيان بحرقة، وعلم منهما أن القرعة قد وقعت على ابنتهما الشابة لتقديمها قربانا لوحش الجزيرة أو “جن البحر” كما يعتقدون، حيث اعتاد السكان أن يقدموا للوحش كل شهر فتاة جميلة بكر، فيأتي الوحش من ناحية البحر في صورة مركب مملوء بالقناديل ويأخذها، مقابل ذلك يسلم سكان الجزيرة طوال الشهر من بطش هذا “الشیطان” الذي يهدد حياة سكان الجزيرة التي يعبد أهلها الأصنام.



حين عرف أبو البركات هذه القصة الغريبة، التي وثقها الرحالة المشهور ابن بطوطة، والتي تبدو أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة، وعرف سبب بكاء تلك العائلة التي وقع الاختيار على ابنتهم الوحيدة لتقدم قرباناً للآلهة، قال لهم إنه سيذهب هو بدلا من ابنتهم، وهو ما حدث بالفعل، حيث توسأ أبو البركات ودخل إلى بيت الأصنام وبدأ يتلو **القرآن الكريم** حتى الصباح، فلم يصب بأذى. وهو الأمر الذي كان غريبا لدى السكان الأصليين. وأعاد الشاب الكرة ثلاث ليال فذهب الوحش ولم يعد في الليلة الرابعة وتخلص منه القرويون.

الإسلام يطرق قلوب المالديفيين

ويروي ابن بطوطة في كتابه “تحفة النُّظار في عجائب الأمصار وغرائب الآثار”، والقصة منقوشة على لوحة جدارية بجانب الجامع الكبير في “ماليه”. كيف تعجب الناس حينما رأوا أبو البركات حيًا في الصباح فأخذوه إلى ملكهم: “فمضوا به إلى مَلِكِهِمْ، وكان يسمى (شنورازا، أو ماها كلامنجا)، وأعلموه بخبره، فعجب منه، وعرض عليه المغربي الإسلام ورغبه فيه، فقال له الملك: أقم عندنا إلى الشهر الآخر، فإن فعلت كذلك ونجوت من العفريت أسلمتُ”.

مسجد في ماليه عاصمة المالديف

وتكرر الأمر ثلاثة أشهر، ونفذ الملك كلمته وأسلم هو وقومه جميعا وحطموا الأصنام وهدموا بيوتها، ومنذ ذلك الحين أسلم أهل الجزيرة جميعًا وباقي جزر المالديف وتمذهبوا بمذهبه وكان على مذهب الإمام مالك، يقول ابن بطوطة: “وهم إلى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه (أبو البركات) وبني مسجدا معروفا باسمه، ومنذ ذلك الحين وجميع أهل المالديف مسلمون بنسبة مائة بالمائة”.

المالديف..الإسلام شرط المواطنة

تتكون جزر المالديف من 1190 جزيرة تبلغ مساحتها 298 كيلو متر مربع، وكانت تحكمها بريطانيا حتى نالت استقلالها عام 1965م، ويبلغ عدد سكانها حوالي 309 ألف نسمة فقط، حيث أن المأهول من جزرها 200 جزيرة لغير. عاصمة المالديف هي “ماليه”، وكل سكان البلاد من المسلمين، بل ينص القانون في المالديف أن الإسلام شرط من شروط أن يكون الإنسان مواطنا في الدولة.



نظام الحكم في المالديف جمهوري، ورئيسها يُعيّن من قبل البرلمان، ويكون التصويت للمسلمين فقط، ودستورها ينص على أن جميع مواطنيها يجب أن يدينوا بديانة الإسلام، وبالتالي فإن الشخص الذي يرغب أن يكون مواطنا فيها عليه أن يكون مسلما أولا، كما يشير دستورها إلى أن مبادئها الجمهورية هي المبادئ الإسلامية. شعب المالديف متدين يحب الإسلام ويحرص على الآداب الإسلامية، والسلوكيات الإسلامية واضحة للعيان، فالحجاب منتشر، ويحترم السكان الأذان، ويقبلون على المساجد، وتغلق المطاعم نهارا في شهر رمضان، وتُمنع المجاهرة بالفطر فيه. كما يوجد في المالديف هيئة عليا لمراقبة التطبيق الصحيح لأحكام الشرع الإسلامي في جميع المحاكم .

السياحة والصيد و”سبيل الدين”

يقوم رئيس الدولة بإصدار صحيفة دينية أسبوعية باسم “سبيل الدين” منذ ثمانية عشر عاما. وهو الذي يقوم أيضا بإلقاء خطبة الجمعة، وإمامة الصلاة بالناس، كما يقوم بإلقاء الدروس والنصائح في الإذاعة والتلفزيون.

نسبة الأمية في المالديف ضئيلة جدا لا تتجاوز 2%، ورغم أن اللغة الرسمية ليست العربية إلا أنه لا يوجد بين السكان من لا يستطيع أن يقرأ في كتاب الله.

اما السياحة فتعتبر المصدر الثاني للدخل القومي بعد الصيد.

والسياحة في هذا البلد مضرب المثل، حيث لا ابتذال ولا تنازل عن المبادئ الإسلامية، يُمنع تقديم الخمور للسياح، ويُلزم السائح باحترام قوانين البلاد الإسلامية، فلا عري ولا خروج على الآداب العامة . وقد خصصت الدولة للسياح 84 جزيرة منعزلة، حيث لا يسمح للسائح أن يذهب إلى الجزر المأهولة بالسكان المسلمين إلا إذا التزم بالآداب الإسلامية. وعلى الرغم من صرامة تلك القوانين فإن السياحة في المالديف هي أكثر القطاعات دخلا وانتعاشا.

ابن بطوطة القاضي..والخرافات



زار الرحالة الأمازيغي المغربي ابن بطوطة جزر المالديف وتطرق لها في مآلفاته، بل حتى أنه عمل قاضيا فيها لفترة من الزمن، قال انها بلغت 14 سنة. ويقول ابن بطوطة في حديثه عن المالديف: "حدثني الثقات من أهلها، كالفقيه عيسى اليميني، والفقيه المعلم علي، والقاضي عبد الله، وجماعة سواهم: أنّ أهل هذه الجزر كانوا كفارا، وكان يظهر لهم كل شهر عفريت من الجن يأتي من ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل، وكانت عادته مأثمهم إذا رأوه أخذوا جارية بكرا فزينوها وأدخلوها إلى بيت الأصنام، وكان مبنيا على ضفة البحر، وله طاق ينظر إليه منها، ويتركونها هنالك ليلة، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضة البكارة ميتة! ولا يزالون كل شهر يقتربون بينهم، فمن أصابته القرعة أعطى بنته".

ثم يتابع ابن بطوطة الحديث عما فعله أبو البركات في إسقاط هذه الأسطورة، وكيف أسلم سكان جزر المالديف على يديه. حتى أن قبره ما يزال مزارا للسياح و أهل البلاد اعترافا بجميله. أسوة بأسلافه الأمازيغ من الدعاة الفاتحين كطارق بن زياد. لكن ابن بطوطة عاين خلال مقامه في جزر المالديف حادثة تحدث عنها في كتابه "تحفة النظار" كأنما تنفي ما فعله أبو البركات أو تناقض حال سكان تلك الجزر بعد إسلامهم فيقول: "...وبسبب هذا العفريت خرب من هذه الجزائر كثير قبل الإسلام. ولما دخلناها لم يكن لي علم بشأنه، فبينما أنا ليلة في بعض شأني إذ سمعت الناس يجهرون بالتهليل والتكبير، ورأيت الأولاد وعلى رؤوسهم المصاحف، والنساء في الطسوت، وأواني النحاس، فعجبت من فعلهم، وقلت: ماشأنكم؟ فقالوا: ألا تنظر إلى البحر؟ فنظرت، فإذا مثل المركب الكبير كأنه مملوء سُرجا ومشاعل، فقالوا: ذلك العفريت، وعادته أن يظهر مرة في الشهر فإذا فعلنا ما رأيت انصرف عنا ولم يضرنا".

أبو البركات مغربي أم صومالي أم يمني؟

من المسائل الجدلية التاريخية التي أثارت بشأن هوية الرحالة الذي أدخل الإسلام إلى المالديف كانت جنسيته، فبينما ذهب معظم المصادر إلى أن أبي البركات البربري مغربي الجنسية، يرى بعض الباحثين غير ذلك، معتبرين أن ابن بطوطة أخطأ بخصوص المالديف، وانحاز للسرد المغربي في نسبته لأبي البركات البربري للأمازيغ (البربر)، مؤكدين أنه صومالي منحدر من بربرة (ميناء تجاري قديم شمال الصومال). بأنصار هذا الرأي يعززون موقفهم بأن ابن بطوطة حينما زار الجزر كان حاكمها في هذا التوقيت صومالي الجنسية، وهو عبد العزيز المقديشوي (نسبة لمقديشو الصومالية)، وكان سلطاناً على الجزر من قبل سلطنة أجوران، وهي سلطنة إسلامية صومالية حكمت أجزاءً كبيرة من منطقة القرن الإفريقي في العصور الوسطى.



في مقال للكاتب “عمران عبدالله” على موقع “الجزيرة نت” يعيد سرد رواية ابن بطوطة عن مواطنه المغربي أبو البركات البربري، لكن الكاتب يقول أن بعض الباحثين وضعوا سيناريو آخر يعتبر أن ابن بطوطة أخطأ بخصوص المالديف، وانحاز لجنسيته المغربية وأصله البربري الأمازيغي في نسبه أبي البركات للمغاربة الأمازيغ وهو ليس كذلك.

ضريح أبو البركات البربري في ماليه عاصمة جزر المالديف

ووفق هذه الرواية فقد كان أبو بركات البربري هو نفسه يوسف بن أحمد الكونين الذي أسس أسرة الوشمة في القرن الأفريقي التي حكمت سلطنة عفت وسلطنة عدل في شرق أفريقيا. وهو عالم صومالي شهير، بالعربية، أبو بركات هو ترجمة مباشرة للصومالي أو برخادل، والتي تعني “الأب المبارك”، أحد ألقاب الشيخ المعروفة.

كما كان شيخا بارزا آخر على الجزيرة أثناء إقامة ابن بطوطة، هو الشيخ نجيب الحبشي الصالح، وهو رجل مثقف آخر من القرن الأفريقي. يشير وجوده إلى وجود قوي للقرن الإفريقي الإسلامي على الجزيرة.

ويظهر هذا أيضا عندما زار ابن بطوطة مقديشو، فقد ذكر أن السلطان في ذلك الوقت “أبو بكر بن شيخ عمر” كان من البربر (صومالي).

وهناك روايات أخرى، تقول إن أبو البركات يوسف البربري كان يمينيا، وأخرى تقول أنه كان فارسيا واسمه أبو بركات يوسف شمس الدين التبريزي وليس البربري.

التجار المسلمون وتأثير أبو البركات

وفي مجلد “التاريخ الإسلامي: العهد العثماني” حكى العلامة محمود شاكر أن التجار المسلمين وصلوا إلى جزر المالديف عام 85 في خلافة عبد الملك بن مروان، وبدأ بعض الناس يدينون بالإسلام، لكن “ظهر أثر المسلمين واضحا عام 545 بعد أن وصل الدعاة إلى تلك الجزر ومنهم أبو البركات البربري، فاستطاع بإذن الله أن يأخذ بأيدي السكان نحو الإسلام، وأسلم الناس جميعًا حتى لم يبق في الجزيرة غير مسلم، وأسلم الملك وتسمى محمد بن عبد الله.”



بلغ تأثير أبي البركات إلى آفاق عدة، فلم يتوقف عند حاجز نشر الإسلام في الجزيرة فحسب، بل أدخل تأثيرات عدة في اللغة المحلية المعروفة باسم السيلانية، منها إدخاله كلمات عربية على قاموسها اللغوي، وأصبح الأهالي يستخدمونها حتى اليوم، منها: الله - الرسول - القرآن - الملائكة - الآخرة - الثواب - العقاب وغيرها من الكلمات العربية التي أصبحت جزءًا من الحياة الجديدة.

وبلغ تقدير المالديفيين للرحالة العربي حد التقديس، وفق ما ذهب إسلام المرشدي الباحث المتخصص في التاريخ الإسلامي، الذي أشار إلى أنه لم يكن هناك بيت واحد في جميع الجزر دون أن يذكر فيه اسم أبي البركات، ومن صور تقدير المالديفيين له أن بنوا له قبرًا في قلب العاصمة المالديفية، ماله، تحول مع مرور الوقت إلى مزار سياحي يرتاده العاشقون للتاريخ المحبون للشخصيات التاريخية ذات التأثير القوي في حياة الشعوب والمجتمعات.

الإسلام يحارب الخرافة

ومهما يكن من أمر الخلاف حول جنسية أبو البركات أو أصله، ومهما يكن من حجم الخرافة التي كان يؤمن بها سكان المالديف قبل الإسلام، واقترابها من الخدعة والنصب والتجني على عقول البشر لإرغامهم على التخلي عن بناتهم، فقد يكون وراء "جن البحر" هذا أو "العفريت" أو "الوحش" الذي يرتاد الجزر على متن مركب مملوء بالقناديل، شخص محتال أو مختل، أو ربما عصابة، تخطف عرائس الجزيرة وتأخذهن لتغتصبهن ثم تقتلنهن.. كل هذا مقابل عدم التعرض لأهالي الجزيرة الذين سيطرت عليهم الخرافة سنوات طويلة.. إلى أن بعث لهم المولى عز وجل رجل فاضل مسلم حافظ كلام الله وجد الطريقة المناسبة التي تجعلهم يحدون عن هذا الطريق ولا يرمون بناتهم إلى التهلكة بسبب قصة لا يصدقها عقل.. فكان أبو البركات سببا في نشر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف الذي يرفض مثل هذه البدع والطقوس والخرافات.. وبفضله خرجت تلك الجزر من ظلام الجهل والتخلف والإيمان بالأباطيل، لتدين بالإسلام **ديق الحق** والعقل والعلم وراحة النفس.



قصة ابو بركات يوسف البربري واسلام جزر المالديف - سبحان الله
الحكواتي - فاتح المالديف - أبو البركات البربري